القـــبر التـــائه !

للأســـتاذ علي الطنطاوي

كم ذا يقاسي العاشقون ويألمون ، ولا يدري بهم أحد ، ولا يبلغ وهمَ إنسان تصوُّر ما يعانون

كم للحب من شهداء عاشـوا بائسين ، وقضوا صامتين ، فما حازوا مجداً ولا فخاراً ، ولا اشتروا جنة ولا أمنوا ناراً ... مساكين ... يعيشون في دنيا الناس وليسوا فيها ، يرون بغير العيون ، فلا يرى الناس ما يرون ، ولا يبصرون ما يرى الناس ، يموت عندهم كل حي ما لم يتصل بالحبيب ، ويحيا كل ذي صلة به حتى الجماد ...

إن فكروا ففي المحبوب ، أو تكلموا فعنهُ ، أو اشتاقوا فاليه ، أو تألموا فعليه ...

فإن تكلمت لم أنطق بغيركم وإن سكتّ فشغلي عنكم بكم

وإن منحوا الدنيا باعوها كلها بقبلة منه أو شمّة أو ضمّة ، ثم لم يأملوا إلا دوامها ، أو الموت بعدها لئلا يجدوا فقدها ، لا يألمون إن قال الناس مجانين ، ولا يحزنون إن نالهم الأذى ، بل ربما سرهم ما يسوء ، إن كان فيه رضا المحبوب ...

وياويلهم من العذال ، يا ويل الشجيّ من الخلي !

يلومون قيساً ، لأنهم لا يرون ليلاه إلا امرأة كسائر النساء ، ففي كل امرأة عوضٌ عنها وبديل منها ، ولو استعاروا عيني قيس فنظروا بها ساعة لرأوا ليلى هي الدنيا ، وهي الأخرى ، وهي الروح ، لولاها ما كانت الحياة ، ولا أضاءت الشمس ، ولا أنار القمر ، ولا بسم الروض ، ولا ضحك الينبوع ، ولا همس النسيم ، ولا غنى الطائر ، ولا كان في الدنيا جميل ...

قصة الحب هي القصة الأزلية التي تكرر دائماً ، وتعاد أبداً ، لا تمل ولا تسأم . وهل يمل حديث الحب ويحكم ! تقرؤها كل يوم فلا تراها تبدل فيها إلا الاسم ، فهي آنا قصة ليلى أو لبنى أو عفراء أو سلمى كرامة ، وهي آنا قصة هلويز أو ماجدولين أو فرجيني أو شارلوت ، ولا تتغير إلا المنازل ؛ فمن بطاح نجد إلى ضفة البحيرة ، إلى ساحل الدنيا الجديدة ، إلى ظلال الزيزفون ... أما القصة فهي هي ما تبدلت ولا تغيرت ... ولا يمكن أن تتبدل حتى تبدل الأرض غير الأرض ...

على أن للحب مواسم ، وله منازل ، ينبت فيها كما ينبت النخيل في البصرة ، والكرم في الشام . فمن منازله لبنان ...

لبنان (شرقيه والغربي) الذي برأه الله على مثال الجنة : روح وريحان ، وحور وولدان ، فمن حل فيه مؤمناً ذاق نعيم الخلود في دار الفناء ، وأحس في الدنيا بسعادة الأخرى ؛ ومن حلّه غير مؤمن أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها ، وما له في الآخرة من خلاق !

لبنان الذي كان دار الأولياء والشعراء والسياح والزهاد ، من كل عابد متبتل ، ومحب هائم ، وتائب أواب !

لبنان الذي جعل الله ماءه خمراً ، وجماله سحراً . فلا تدري أهو السحر قد خيّل لك أنك في جنة الخلد ، أم هو السكر قد جعلك تحس التخلص من هذا العالم ، الغارق في الدم ، الملتحف بالهب ، وتشعر أنك تعيش في الأفق الأعلى عيشة اللذة الدائمة ، والذهول الناعم الهنيء ، وسط عوالم من النور تدرك ولا ترى

لبنان الذي لا تدري أي شيء فيه هو أجمل : أذراه التي تبرقعت ببراقع الثلج فلم تبصرها عين حي من يوم خلق الله العالم ، فعز بالحجاب جمالها حين ذل بالسفور الجمال ، أم سفوحه الحالية بالصنوبر ، أم القرى المنثورة على تلك السفوح ، أم صخوره الرهيبة الهائلة ، أم ينابيعه المتفجرة تفجر الحكمة على لسان نبي ، أم أوديته الملتوية التواء الفكرة في رأس أديب لا يملك البيان عنها ؟ وأيُّه هو أبهى : أصباح (بلودان) ، أم ظهيرة (الشاغور) من (حمّانا) ، أم الأصيل الفاتن في ربى (صوفر) ، أم المساء الوادع في خليج (جونيه) ، أم مناجاة الملائكة في قمة (جبل الشيخ) ، أم مسامرة الزمان عند (الأرز) ، أو في (بعلبك) ؟

أم أنت تؤثر هذا كله ، وتتمنى لو شملته بنظرة منك واحدة ، ثم ضممته إليك ، ثم شددت عليه ، حتى أنفيته فيك ، أو فنيت أنت فيه ؟

تعالوا سائلوا سفوحه وذراه ووديانه ورباه ، كم شهد من فصول هذه القصة الخالدة ، قصة الحب ... وكم أريق على صخوره

من الحيوات والعواطف . . يطل جوابكم لو ملك الكلام ... ولكنه أبكم لا ينطق والناس بكم لا يرون إلا تاريخ الوحشية المدمرة العاتية يحفظونه أبناءهم ليكون لهم منه أظفار كأظفار الوحش ، ومخالب كمخالب النسور ، أما تاريخ الإنسانية العاشقة فإنهم يزدرونه ويترفعون عن حفظه ، ويرون من الخطر على الأخلاق أن يدرس فى المدارس !

وكذلك أرى أنا ... وهل أنا إلا من غزية ؟...

وإلا فمن يروى لى قصة هـذا القبر النائه ، الذى نأى عن موطنه ، وفارق إخوانه ، وطوّف حتى استقرّ عند قدم صخرة هائلة من صخور (رأس بيروت) ، يلطمه الموج صباح مساء ، فيستغيث استغاثة غريق عانى الموت ، ولا من مغيث !

* * *

قبر منفرد ضائع بين الصخور ليس ما يدل عليه إلا حجر منحوت نحتاً غير متقن ، عليه كتابة قد براها الماء فلم يبق منها إلا أنقاض هذه الأبيات :

الشمس تطلع تارة وتغيب والليـل يجمع شمل ... ...
وأنا محب لم أجد إلا الشقا أحيي الليالى ... ...
أفيجمع القبر الأحبة إن نمت ويكون ... ...

فمن (يا أهل بيروت) يعرف تلك القصة التى لم يبق منها إلا هذه الخاتمة الأليمة : قبر نائه ، عليه شعر إن لم يحفل به علماء اللسان ، كان حسبه أن يحفل به علماء القلوب ؟

هل فى هذا القبر عاشق من لبنان يوم لم يكن قد قسد لبنان ولا عاثت فيه يد الحضارة ، عرف فتاته فى الطفولة الحلوة المبرأة التى تتهدى بين البيت السعيد ، والحقل الخصيب ، والمرعى الجميل ، والكرم البهى ، فكانا يلحقان الأفراخ (الصيصان) وهنّ بنات يوم واحد ، قد خرجن من البيض كرات ذهبية من الريش الأصفر الناعم ، تطير لخفتها مع النسيم ، وتحلّ لحلاوتها فى الفؤاد ، فإذا رأتهما الدجاجة الأم ، فأقبلت عليهما نافشة ريشها مستنفرة ، خافا فارتدا إلى الجدى يلاعبانه ، والجحش يركبانه . وكان عالمهما صغيراً كله ، والصغير من كل شىء فاتن محبوب . ومن منا لا يحب الصبى ، والبنيّة ، وفرخ الطائر ، والهريرة ، والكليب ، وغصين الشجرة ، وزر الورد ، والكتيّب ، والقليم ، وكل لطيف من التحف والطرف[1] ، ودقيق من الأشياء ؟ من لا تنجذب إلى ذلك نفسه ، ويحنو عليه قلبه ؟

ثم كبرا ، فكانا يصحبان القطيع إلى القمم القريبة وإلى الوادى . ثم أبعدا المرعى ، فكانا يرافقان الشمس فى غدوها ورواحها ويطوّفان تطوافها . ثم اكتمل جمالها وتمت رجولته ، وكذلك تؤتى الفضيلة أكلها إذا عاشت تحت عين الشمس فى الأعالى التى لا ترقى إليها جراثيم المرض وأسقامه ، فصارا يقاسمان الكبار السمر على (المصطبة) فى ليالى الصيف ، وفى (العلّية) فى الشتاء . ومرت الأيام ، فإذا هى فاتنة القرية وحسناؤها ، وإذا هو بطل الديرة ورجلها ، ومقدم الشباب فى المصارعة ، وحمل الأثقال ، والعدو ، والسباحة ، وتلك كانت مفاخر الشاب الجبلى فى تلك الأيام . وكان رقصهم الدبكة على (الياذل) أو على (دلعونه) وكان هو شيخ الدبكة

وكان الحب قد ولد فى نفسيهما ، فكانا يجلسان على قلة على شفير الوادى ، يرعيان هذا الحب الوليد ، ويدعان القطيع يرعى بنفسه ، وكان لها عنده مثل الذى له عندها ، فما الذى فرق بينهما ؟ أهو المال أم الدسائس أم قد زوجوها من غيره . أم ماذا ، من يحفظ قصتهما يا أهل بيروت ؟

وكيف عاشت من بعده ، وكيف عاش من بعدها ؟

* * *

أم كان متكئاً فى زورقه ، يرقب الشمس وهى فى موقف الوداع صفراء شاحبة ، لا يحفل بها أحد ممن كان فى الميناء ، لأن هموم العمل لم تدع فى قلوبهم مكاناً للشعر . فأيقظه من غفوة التأمل أسرة تريد أن تجول فى البحر جولة فى الزورق ... هنالك رآها ، واستقر حبها فى قلبه ، ولم يكن بذى صاحبة ولا ولد ، فهام بها هياماً وقلب الأرض يفتش عنها علّه يحظى منها بنظرة فلم يلقها . فعاش بقية عمره يتجرع غصص الألم المكتوم ، حتى مات حيث لقيها ، ودفن حيث مات

وهذا الحب هو النار التى تأكل القلب ... وما قرأت مرة قصة القاضى ابن خلكان إلا رحمته مما يقاسى . كان ببيت وحده

(١) الطرف أو الطرائف هى ما يسمى فى لسان التجارة وفى لغة العامة (نوفوته nouveautés فياحبذا لو استبدلوها بها

فى المدرسة العادلية الكبرى (دار المجمع العلمى بدمشق) فإذا أراد أن ينام تمثلت له صورة المحبوب ، فتلى دمه فى عروقه وفار ، فأقبل يدور حول البركة ويقول :

أنا والله هالك آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى قد أقامت قيامتى

حتى يؤذن الفجر ، وكان يحب من ليس فوقه إلا السلطان

قلت : ومن هنا ما تجدون من الذوق فى ترتيب كتابه (وفيات الأعيان) وما يختار فيه من الشعر !

* * *

أم أن هذا قبرها هى ، يقوم على الشاطئ ، على مسرح المأساة التى طالما مثلت عليه وأعيدت

هنا كانت تقوم ترقب عودته من المهجر من أمريكا ، تذكر أبداً كيف ودعته بالدموع الغزار ، وودعها بزفرة وعناق ، ومنّاها الفتى والجاه والعودة القريبة ؛ وانقضت الأيام وكرت الشهور ولا حس ولا خبر . . . والفتاة ترقب وتنظر وقد عافت عشها ، وجفت أهلها ، واختصرت دنياها كلها ، فكانت هذه الصخرة الصلماء التى شهدت مبدأ آلامها وتأمل أن تشهد نهايتها ، تظن من حبها وتذكرها أن السفينة لا تزال قريبة منها ، وأن الحبيب يلوح لها بمنديله ... وبينها وبين الحبيب بحار ولجج ، وأيام وليال ، والحبيب قد سلاها ونسيها ، وطمست صورتها فى نفسه أمواج الثروة واللذة والدنيا العظيمة فى نيويورك حتى محتها ...

فماتت شوقاً إليه ، وأسفاً عليه

أم هى لم تمت وإنما شهدت عودته ، فإذا هو قد عاد رجلاً غير الذى ذهب ، لم يبق فيه من ابن القرية إلا كما يبقى من ندى الصباح تحت شمس الهاجرة ، لا زيه زيه ، ولا لسانه لسانه ، فأعرض عنها وازدراها . ورأت إلى جانبه فتاة من بنات (باى باى) . فخولطت وعادت إلى صخرتها تنتظر عودة من ليس يعود ، حتى وافاها الأجل ، فدفنت مكانها ؟

أم هو قبر عاشق مانت حبيبته كما مانت ليلى ، فعاش بعدها كما يعيش كل حبيب يائس

أم كانت قصة هذا القبر شيئاً آخر ، فمن يعرف هذا الشيء ؟

من يهتم بشهيد من شهداء الغرام ؟ من يعنى بضحية من ضحايا العواطف ؟ من يبكى للحب المجهول ، ويقف على قبره وقوف الناس على قبر الجندى المجهول ؟

يا رحمتا للعاشقين ! حيهم بائس ، وميتهم منسى ، وحديثهم ضائع ...

يا رحمتا للعاشقين ! لا يقام لشهيدهم قبر ، وإن أقيم له لم يقف عليه أحد ، ولم يحفظ تاريخه

ويا ضيعة هذا الكنز الأدبى العظيم ، هذه الدنيا من العواطف لم يبق منها إلا ما أودع ديوان (المتايا) فمن يعنى بجمع هذا الديوان ونشره فى كتاب ؟

ألم تعلموا بعد أن فى هذه المتايا من الصور والمعانى ما لا يملك بعضه غزل شعراء العرب كلهم مجتمعاً ؟ فمن يهتم به ؟ ومتى يأخذ الشعراء هذه الصور والمعانى فيودعونها الشعر الفصيح ؟

* * *

ويعد فيا أهل بيروت

إذا جزتم بهذا القبر التائه ، فقفوا عليه كما تقفون على قبر الجندى المجهول ؛ وقدسوا فيه المحبة كما تقدسون هنالك البغض ، وكرموا فيه الحياة ، فالحياة الحب والحب الحياة ، واجعلوه تمثال العاطفة ، فالعاطفة فوق العقل ، والإنسان إنسان بالعواطف لا بالتفكير ...

لا تحقروا العاطفة ، ولا تزدروا القلوب ، فإن القلب منزل أقدس شيئين فى الوجود : الإيمان والحب . وحسب العقل جموداً وعجزاً أنه لا يستطيع أن يفهم الحب ولا يدرك الإيمان . وحسب العاطفة كرماً ونبلاً ، أن من ضروبها حب الوطن والوفاء ، والإحسان والرحمة ، وذلك ما يميز الإنسان من سائر الحيوان ...

ونحن اليوم فى حاجة إلى الإيمان بالعاطفة الخيّرة ، فلنجعل الحب العفيف وسيلة إليها ، ولنتخذ منه سلاحاً نحارب به الفسوق والدعارة ، والفظاظة والوحشية ، ولنستكمل به إنسانيتنا فمن لم يعرف الحب لم يكن له قلب

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فكن حجراً من يابس الصخر جلمداً

على الطنطاوى